"العلماء والفقهاء المغاربة في ممالك السودان الغربي بين القرنين الخامس والعاشر الهجريين
الحادي عشر والسادس عشر الميلاديين"

د. مسعود خالدي

أستاذ محاضر (ب)

بجامعة 8 ماي 1945 بقالمة

مقدمة:

إن الروابط الثقافية بين دول المغرب والسودان الغربي قديمة , ترجع جذورها إلى القرن الأول الهجري /السابع الميلادي . كان التجار من أوائل من نقلوا الإسلام وحضارته إلى شعوب إفريقيا جنوب الصحراء، فكانوا يحملون بجانب تجارتهم لإسلام وحضارته ويقومون بنشر الإسلام واللغة العربية .[1]

يرجع بعض المؤرخين[2] هذه العلاقات إلى الحملات العسكرية التي قام بها قادة الفتح الإسلامي في بلاد السودان منها حملة عقبة بن نافع في ولايته الثانية 63هـ /682م[3] وحملة موسى بن نصير سنة 86هـ /705م[4] وحملة بن أبي عبيدة سنة 116هـ/734م[5].

---

[1] أرنولد توماس : الدعوة إلى الإسلام , ترجمة حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين , مكتبة النهضة المصرية , القاهرة , 1970 , ص371

[2] ابن عبد الحكم في كتابه فتوح مصر والمغرب ، وابن عذارى في كتابه البيان ، وابن خلدون في كتابه العبر .

[3] أبو عبد الله ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق ج س كولان وليفي بروفنسال ، دار الثقافة , بيروت , ج1 ص37

[4] نفسه , ج1،ص42 , ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، تحقيق عبد النعم عامر ، القاهرة ، 1961ص276

[5] نفسه , ص293

ونتيجة للصلات التجارية والسياسية التي قامت بين المنطقتين في عهد الولاة ثم الدول المستقلة [1] ,أنتقل عدد كبير من المغاربة إلى السودان الغربي منهم العلماء والفقهاء . فكان أثرهم بارزا على الحياة الثقافية منذ القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي خاصة بعد قيام دولة المرابطين سنة 451هـ/1156م [2].

فمن هؤلاء العلماء والفقهاء المغاربة ؟ ولماذا تزايد نشاطهم الفكري والدعوي بعد قيام دولة المرابطين؟وما هي أهدافهم عند ذهابهم إلى بلاد السودان الغربي والإقامة بها ؟ كيف كانت علاقتهم مع الأهالي وملوكهم ؟ هل كانت حسنة أم سيئة؟ وما هو أثر وجودهم على الحياة الثقافية هناك ؟

يأتي هذا المقال التاريخي للإجابة على الأسئلة المطروحة معتمدا على مجموعة من المصادر والمراجع التاريخية منها كتب الرحلة والجغرافيا أشهرها كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية للبكري ،ونزهة المشتاق للإدريسي، وتحفة النظار لابن بطوطة ووصف إفريقية لحسن الوزان، وكتب سودانية منها كتاب التاريخ للسعدي والفتاش لمحمود كعت التنبكتي، وكتب التاريخ العام منها البيان المغرب لابن عذارى والعبر لابن خلدون.

ويعرض سيرة بعض العلماء والفقهاء والدعاة المغاربة الذين دخلوا بلاد السودان وأقاموا بها، وعملوا على نشر الدعوة الإسلامية والثقافة العربية الإسلامية في ممالك السودان الغربي (غانة ومالي وسنغاي)، ويبين علاقتهم بالسكان والملوك والأمراء ومكانتهم في المجتمع بين القرنين الخامس والعاشر الهجريين /الحادي عشر والسادس عشرالميلاديين. ويأتي ذكر السودان الغربي في هذا الموضوع لعلاقته الوطيدة ببلاد المغرب ثقافيا وسياسيا واقتصاديا ولامتداده الطبيعي لها جنوبا.

---

[1] الدول المستقلة : يقصد بها الدول التي قامت بعد عصر الولاة منها الدولة الرستمية , الدولة الإدريسية ,دولة الأغالبة , والدولة الفاطمية

[2] عصمت عبد اللطيف دندش: دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا ،دار الغرب الإسلامي، بيروت , ص153

مفهوم العلماء والفقهاء :

العلماء [1] هم القائمون على الدين المشتغلون بعلومه، وتشمل الفقهاء، والمفسرين ورواة الحديث، وقراء القرآن، والمجودين، والنحويين. ولفظ علماء يطلق على كل هؤلاء، بينما اقتصر لفظ الفقهاء على المشتغلين بعلم الفقه،وفصل المرابطون بين علماء الدين وغيرهم من العلماء[2]. وجرت العادة في البلاد السودانية أن يلحق بالفقهاء أئمة المساجد وخطبائها، كما يتصل بفقه العلماء الفقهاء القضاة، إذ كانوا يختارون من بينهم . وليس من السهل تقسيم العلماء وفق التخصصات، والقاعدة هناك أن يجمع العالم أو الفقيه بين كل هذه العلوم أو بعضها في دراسة والأسئلة في ذلك كثيرة، والاستيفاء في ذلك الأمر قليل، ولذلك كان القاضي كثيرا ما يجمع بين اشتغاله بالعلم وبين كلمة قاضي[3] :

مفهوم السودان الغربي:

أطلق الجغرافيون والمؤرخون والرحالة العرب في العصور الوسطى على المناطق الواقعة فيما وراء الصحراء الكبرى وشمال خط الاستواء والممتدة من البحر الأحمر شرقا حتى المحيط الأطلسي غربا اسم بلاد السودان.

رغم أن المدلول اللفظي لكلمة السودان قد تعني الشعوب السوداء البشرة فإنه من المرجح دلالتها عندهم يقصد بها المناطق الأكثر تأثيرا بالشمال الإفريقي حتى

---

[1] العلماء : ومفردها عالم ويقصد بهذه الكلمة لغويا الذي يعمل بما يعلم وهي مشتقة من كلمة العلم وهو نقيض الجهل، أما كلمة الفقهاء مشتقة من الفقه ويعني لغويا العلم بالشيء والفهم له ، وعلم بمعنى علم الدين لسيادته وشرفه وفضله على سائر أنواع العلوم وجعله العرف خاصا بعلم الشريعة والفقه في الأصل الفهم ، ويقال أوتي فلان فقها في الدين أي فقيها فيه, قال الله عز وجل : " ليتفقهوا في الدين " أي ليكونوا علماء فيه . (ابن منظور : لسان العرب , دائرة المعارف , القاهرة , م4 ص 3083 , م5 ص 3450).

[2] عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق سيد العريان ، نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة ،1963 ، ص 171.

مجهول : الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، نشر س علوي ، رباط الفتح , 1936 , ص3

[3] عبلة محمد سلطان لطيف: العناصر المغاربية في السودان الغربيودورها السياسي والحضاري منذ ظهور المرابطين حتى نهاية دولة سنغاي ,رسالة دكتوراه, مركز البحوث والدراسات الإفريقية, جامعة القاهرة،1999، ص187

أصبح معظم سكانها من المسلمين[1]، وبلاد السودان هي المنطقة التي تحدها الصحراء من الشمال والغابات الاستوائية من الجنوب والمحيط الأطلسي من الغرب ونهر النيل شرقا.

وتشمل بلاد السودان ثلاثة أقسام هي : السودان الشرقي ويضم حوض النيل وروافده، والسودان الأوسط وهي الأراضي الواقعة حول بحيرة تشاد, أما السودان الغربي يقصد به المناطق الواقعة بين حوض نهري السنغال والحوض الأوسط لنهر النيجر والمجرى الأعلى لنهر فولتا وهي جزء من غرب إفريقيا ويشمل المنطقة الواقعة بين المحيط الأطلسي غربا وبحيرة تشاد شرقا والصحراء شمالا والغابات الاستوائية جنوبا.[2]

1. العلماء والفقهاء المغاربة في مملكة غانة[3]:

بفضل العلاقات السياسية والاقتصادية التي كانت قائمة بين بلدان المغرب ومملكة غانة، تنقل عدد كبير من دعاة[4] وفقهاء المغرب إلى السودان الغربي قبل وخلال القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي منهم من كان من الإباضية ومنهم من كان من المالكية. وذكر بعضهم البكري (ت487هـ/1095م) أشار

---

[1] مسعود عمر محمد علي : تأثير الشمال الإفريقي على الحياة الفكرية ، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، طرابلس. 2003 ،ص19 .

[2]. حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام ، القاهرة ، 1957 ، ص378 .

[3] مملكة غانة : من أقدم ممالك السودان الغربي , ظهرت في القرن الرابع الميلادي وبلغت ذروة مجدها حوالي القرن الثاني للهجرة /الثامن الميلادي ,وتحولت إلى الإسلام بعد دخول المرابطين لها سنة 469هـ/1076م ،و سقطت سنة 638هـ/1240م من طرف قبائل المالنديي . وكلمة غانة في لغتهم تعني مقر القيادة العسكرية وصارت اسم العاصمة والمملكة.(عصمت عبد اللطيف دندش : دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب افريقيا ، دار الغرب الإسلامي , ص 112,113)

[4] الدعاة : قوم يدعون إلى بيعة هدى أو ضلالة وأحدهم داع ورجل داعية إذا كان يدعو الناس إلى بعة أو دين ، وهنا يقصد بهم دعاة الرسالة الإسلامية , وقد يكون الداعية فقيها أو عالما . (ابن منظور : المصدر السابق ، م3 ، ص1367)

إليهم بالثقاة لأنه أخذ بعض المعلومات التي أوردها عن مملكة غانة عنهم، فذكر : الغربي أبو عبد الله المكي والفقيه المغربي أبو محمد عبد الملك .[1]

كما أشار إلى وجود داعية قال عنه : " إنه ضيف من المسلمين يقرأ القرآن ويعلم السنة " وقد أسلم على يد هذا الداعية ملك ملل [2] , لكنه لم يذكر اسم الملك الذي أعتنق الإسلام ولا اسم التاجر المسلم الذي كان سببا في اعتناق ملك مالي الإسلام .[3]

أ . دعاة وفقهاء الإباضية في مملكة غانة :

تنقل عدد كبير من فقهاء الإباضية إلى بلاد السودان الغربي، فكان لهم فضل كبير في نشر الإسلام في مملكة غانة منذ القرن الثاني للهجرة خاصة بعد قيام الدولة الرستمية .ذكر الشماخي أن" بلاد السودان بغانة وما يليها كانت تدين بالمذهب الإباضي حتى تسامعت بهم المخالفون فقصدوها من كل صوب فردوهم إلى مدنهم" .[4] وزودتنا كتب ومصادر الإباضية [5]بمعلومات هامة عن تنقل التجار والفقهاء وعلماء الإباضية الذين دخلوا بلاد السودان ,ومن أشهرهم علي بن يخلف.

---

[1] البكري المصدر السابق , ص178. 179. 180

[2] ملل : وتعرف باسم ملي ومالي في بعض المصادر العربية .كانت مقاطعة من مملكة غانة الإسلامية خلال القرن الخامس الهجري /الحادي عشر الميلادي , وتحولت إلى دولة خلال القرن السادس الهجري /الثاني عشر الميلادي بعد نجاح قبائل الماندي السيطرة على غانة وعاصمتها سنة 638هـ/ 1240م , وأضحت من أكبر ممالك السودان الغربي . بلغت ذروة مجدها في عهد ملكها منسا موسى713 739هـ/ 13131338م وعاصمتها مالي وتعني في لغتهم مقر الملك (إبراهيم علي طرخان : مملكة مالي الإسلامية ، القاهرة , 1973 ,ص 39)

[3] . البكري : المصدر السابق ، ص 178

[4] أبو العباس الشماخي : كتاب السير . مخطوطة بدار الكتب , القاهرة ,رقم 769 . ورقة 120

[5] مصادر الإباضية : هي المؤلفات التي كتبها إباضيون وتناولت سير وتراجم علماء وفقهاء وتجار الإباضية الذين تنقلوا إلى بلاد السودان، أشهرها كتاب طبقات مشايخ المغرب للدرجيني وكتاب السير لأبي زكريا وكتاب السير للشماخي وكتاب السير وأخبارهم للوسياني .

يشير أبو العباس الدرجيني وهو إباضي (عاش خلال القرن 7هـ / 13م) في كتابه طبقات مشايخ المغرب أن جد والده علي بن يخلف النافوسي[1] كان تاجرا وداعية من بلدة نفطة بجنوب تونس، قد سافر إلى غانة لغرض التجارة وتمكن هناك من أن يقنع ملك غانة بالدخول الى الإسلام[2].

نفس الإفادة يذكرها المؤرخ الإباضي الشماخي (ت928هـ/ 1522م) في كتابه السير" أن الذي أعتنق الإسلام كان ملك غانة" ولكن حادثة الاعتناق كانت في مدينة مالي.[3]

ويذكر ابن خلدون (ت808هـ/ 1406م) أن أول من أعتنق الإسلام في مالي ملكها برمندانة.[4] وقد يكون كل من الدرجيني والشماخي وهما من الإباضية أطلعا على ما ذكره البكري الذي عاش خلال القرن الخامس الهجري (432هـ - 487هـ / 1040م - 1094م)، وأعتقدا أن ذلك التاجر والداعية هو من الإباضية ويسمى علي بن يخلف .[5] كما وردت في مصادر الإباضية مجموعة من أسماء التجار والعلماء الذين نشروا الدعوة الإسلامية في السودان الغربي.

فقد ذكر الشماخي أن عالما يدعى أبا موسى هارون بن أبي عمران الوسياني من بلاد الجريد بجنوب تونس ذهب إلى ورجلان حيث عرض عليه منصب معلم

---

[1] علي بن يخلف النافوسي : قد يكون من جبل نفوسة في جنوب ليبيا حاليا وهي منطقة معروفة بتمسك سكانها بالمذهب الإباضي منذ القرن الثاني للهجرة /الثامن الميلادي إلى يومنا هذا، وجبل نفوسة له امتداد جغرافي بجنوب تونس .

الدرجيني : طبقات مشايخ المغرب ،تحقيق ابراهيم طلاي ، مطبعة البعث، قسنطينة . الجزائر، ج1 ، ص175

[2]. الشماخي :المصدر السابق ، ورقة120

[3] برمندانة : يمكن القول أن المعني باسم برمندانة في رواية ابن خلدون والقلقشندي هو برمندانة الأول من أسرة الكونتيين وهو إحدى ملوك مالي في القرن الخامس الهجري أي قبل أن تكون مالي دولة وإنما مقاطعة من غانة وهو أول من أسلم وأول من حج من ملوك مالي .(بن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج5 ،حققه شحادة وسهيل زكار ،دار الفكر بيروت ، ج6، 2001 ،ص266،أحمد بن علي القلقشندي : صبح الاعشى في صناعة الإنشا، تحقيق وتعليق نبيل خالد الخطيب، دار الكتب العلمية، ط1 ، بيروت ، لبنان،1987، ج5 ،ص193)

[4] حسين أحمد إلياس : دور فقهاء الإباضية في إسلام مملكة مالي قبل القرن . مجلة البحوث والدراسات العربية بغداد 1405هـ/1985م ص97.

براتب مائة دينار لكنه رفض ذلك وغادر الواحة إلى غانة للتجارة وأستقر بمدينة غيارو قضى حياته هناك إلى أن توفي.[1]

إن مثل هذا المعلم أو الفقيه بدون شك كان داعية للدين الإسلامي من خلال دروسه التي كان يلقيها في المساجد ومن خلال اتصالاته بالناس في تلك المناطق.

وللتنبيه فإن المذهب الإباضي كان أكثر انتشارا من المذاهب الأخرى قبل القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي بسبب الاتصالات التجارية التي كانت قائمة بين الدولة الرستمية والسودان الغربي كما تؤكده المصادر التاريخية .[2] ومع دخول المرابطين إلى المنطقة أصبح المذهب المالكي هو السائد مثل ما هو موجود ببلاد المغرب . وبقي المذهب الإباضي منحصرا في بعض المناطق المعزولة، ولاحظ ذلك ابن بطوطة أثناء رحلته فقال : " ...وصلنا إلى قرية زاغري، وهي قرية كبيرة يسكنه البيض يتمذهبون مذهب الإياضية من الخوارج"[3]

ب . الفقهاء والعلماء المغاربة في كومبي صالح (عاصمة مملكة غانة) :

نظرا لقدم الإسلام في مملكة غانة،تأسس حيا إسلاميا بحاضرة غانة كومبي صالح، وصار ينمو ويتسع حتى صار مدينة كبيرة قائمة بذاتها, وأصبح هذا الحي يضم جالية مغاربية لها مساجدها وعلمائها وأئمتها . يشير البكري[4] إليها فيذكر: "ومدينة كومبي صالح مدينتان سهليتان أحدهما المدينة التي يسكنها المسلمون وهي مدينة كبيرة فيها اثني عشر مسجدا، أحدها يجمعون فيه (أي يقيمون فيه صلاة

---

[1] الشماخي : المصدر السابق ، ورقة 150

[2] ابن الصغير المالكي : أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق محمد ناصر وإبراهيم بحاز ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1976 ص 21

[3] أبو عبد الله محمد المعروف بابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة (المعروف ب: تحفة النظار في غرائب الأمصار) دار بيروت للطباعة والنشر , بيروت ,1400هـ/1980م ص 680

[4] البكري :المصدر السابق ، ص189

الجمعة) وها الأئمة والمؤذنون وفيها فقهاء وحملة علم ,وحاوليها آبار عذبة، منها يشربون وعليها يزرعون الخضروات ويحصلون على الميرة " وأستطاع علماء الآثار من العثور على لوحات وشواهد قبور متعددة ترجع الى القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي مكتوب عليها آيات القرآن الكريم بالخط العربي مما يؤكد وجود جالية من المسلمين بالمدينة منهم الدعاة .[1]

وأشار ابن الوردي[2] إلى غانة بقوله أن حاضرة غانة "مدينتان على ضفتي النيل ويقصدها التجار من سائر البلاد ", ويقول القلقشندي[3] عن مدينة غانة : " وغانة مدينتان أحدهما يسكنها المسلمون والثانية يسكنها الكفار" كما أشار المقريزي إلى ذلك[4] : "وغانة مدينتان أحدهما يسكنها المسلمون والأولى الكفار" وعمرت غانة بعناصر مختلفة من السكان منها أقلية مسلمة ولكن للجالية المغاربية كان لها مكانة ومنزلة مرموقة منها طبقة العلماء والفقهاء فكانت تسكن بيوتا ذات أقبية واسعة وغرف متقابلة فسيحة أشتملت جدرانها وأعمدتها على بعض النقوش والكتابات المغربية .

إن استقرار الفقهاء المغاربة بمدينة غانة أو كومبي صالح يرجع الى القرن الثاني للهجرة / الثامن الميلادي ومن أشهرهم "صالح" قال عنه ابن خلدون [5] هو صالح بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب(رضوان الله عليه) حيث دخل بلاد السودان لإقامة مملكة إسلامية فيها. ويظهر أن صالحا آت من مكة ولقي من

---

[1] أحمد فتوح عابدين : الحواضر الإسلامية في غرب إفريقيا في القرنين 6و7هـ. رسالة ماجستير . جامعة القاهرة. 1989 . ص101

[2] ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي . ترجمه ونشره هيلاندر . لندن . 1833 . ص284

[3] القلقشندي : المصدر السابق . ج6 . ص274

[4] المقريزي الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة والسودان من ملوك الإسلام . مصر . 1825 . ص23

[5] ابن خلدون : المصدر السابق ،ج4 ،ص164

الترحيب ببلاد غانة بالقدر الذي لقيه إدريس الأول في المغرب،فأستغل هذا الاستقبال الحار وأقام ببلاد السودان [1].

وأورد القلقشندي[2] أن صاحب التكرور يدعي النسب إلى صالح بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب وذكر:" أن سلطان غانة يدعي النسب إلى الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام " قد يكون للفقيه والعالم "صالح" من أتباع الأدارسة له فضل كبير في بناء مدينة صالح . وكومبي في لغة الزنج تعني مدينة مضافة إلى الاسم العربي صالح فأصبحت الكلمة مجتمعة " مدينة صالح"[3].

ج . دعاة المرابطين وفقهائهم في السودان الغربي :

أعتمد المرابطون على دعاتهم في نشر تعاليم الإسلام منذ بدء دعوتهم، فكان الداعية عبد الله بن ياسين يرسل الدعاة بعد تدريبهم في رباط إلى القبائل الملثمة والسودانية لترغيبهم في الإسلام . فأعتنق ملك التكرور وارجابي بن رابيس الإسلام سنة 422هـ / 1066م على أيديهم وطبق أحكام العقيدة الإسلامية في مملكته[4].

ويذكر البكري[5] أن ملك التكرور المدعو وارجابي بن رابيس قد أعتنق الإسلام وتبعه الكثيرون من أتباعه ورعيته بإعلان إسلامهم .

وكان عبد الله بن ياسين (ت 451هـ/1059م) صاحب الدعوة المرابطية، قد وقع اختياره على بلاد السودان لإقامة الرباط في منطقة مطلة على نهر السنغال . وصفها ابن خلدون [6]فقال: "ربوة يحيط بحر النيل من جهتها". دخل إليها مع تسعة من أصحابه من قبيلة جدالة وشرع في عبادة الله، ولما مرت ثلاثة أشهر سمع به الناس

---

[1] محمد الغربي :بداية الحكم المغربي في السودان الغربي ،وزارة الإرشاد والثقافة والإعلام، دار الرشيد، بغداد، 1982،ص24

[2] القلقشندي : المصدر السابق م ،ج5 ،ص286

[3] محمد الغربي . المرجع السابق ص 24

[4] عصمت عبد اللطيف دندش : المرجع السابق ،ص150

[5] البكري : المصدر السابق ، 175

[6] ابن خلدون : المصدر السابق ،ج6، ص243

فأقبلوا عليه حتى أجتمع له من التلاميذ نحو ألف رجل، ومن هذا المكان أي الرباط الموجود ببلاد التكرور أنطلق للجهاد في سبيل الله[1]. وشكل بذلك جيشا أفراده من مختلف القبائل، أطلقوا على أنفسهم اسم المرابطين.[2]

وفي سنة 469هـ/ 1076م قام أبو بكر بن عمر خليفة عبد الله بن ياسين بفتح مملكة غانة الوثنية أقام عليها حاكما مسلما، وقد يكون نفس الملك الذي كان يحكمها، أعتنق الإسلام طواعية وبإسلامه دخل عدد كبير من سكان مملكته الدين الجديد . ولم يدم حكم المرابطين بغانة طويلا بل انتهى بوفاة أبي بكر بن عمر سنة 480هـ / 1087م، فقد قتل على يد أحد جنود قبائل الموسى الوثنية السودانية.[3]

وخلال حكم المرابطين للمغرب أي القرنين الخامس والسادس الهجريين/ الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، أسلم عدد كبير من حكام السودان الغربي وشعوبهم على يد فقهاء مغاربة منهم ملك جني وملك جاو أو غاو أو كوكو[4].

يذكر البكري[5] أن ملك جاو (تحولت جاو في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي عاصمة لمملكة سنغاي) دخل الإسلام بفضل الوجود الكبير للعلماء والفقهاء المسلمين الذين دخلوا بلاده حيث اتخذوا من مساجدها مدارس يحفظون الناس فيها القرآن الكريم ويفقهونهم في أمور دينهم .

وخلال القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي أسلم ملك جني، فقد ذكر السعدي[6] صاحب كتاب تاريخ السودان أنه (أي الملك) : " لما عزم على الدخول في الإسلام أمر بجنده وجميع العلماء الذين كانوا في أرض المدينة فحضر

---

[1] ابن أبي الزرع : الأنيس المطرب روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس – تحقيق يوحن نوردبرغ – دار الطباعة المدرسية 1833 . ص79، مجهول : الحلل الموشية . ص23

[2] . عصمت عبد اللطيف دندش: المرجع السابق. ص69

[3] . نفسه . ص115

[4] ابراهيم علي طرخان : إمبراطورية غانة الإسلامية ,الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر,القاهرة ,1390هـ/1970م ص39

[5] البكري المصدر السابق . ص179، 183

[6] . السعدي تاريخ السودان ,وقف على طبع هوداس, مكتبة أمريكا والمشرق , باريس 1908,ص12،13

منهم أربعة آلاف ومائتان عالما[1] وأسلم على أيديهم وأمرهم أن يدعوا الله تعالى بثلاث دعوات لمدينته وهي أن كل من يتسرب من وطنه ضيفا وعسرا أن يبدها الله له سعة ويسرا حتى ينسى وطنه ذلك وأن يعمرها بغير أهلها أكثر من أهلها وأن يسلب الصبر من الواردين إليها فقرأوا الفاتحة على الدعوات فكانت مقبولة ...."

3. فقهاء وعلماء المغاربة في مملكة مالي :

لما أنتقل الحكم في السودان الغربي من مملكة غانة الى مملكة مالي، أحتفظ العلماء المغاربة بمكانتهم في المجتمع وفي بلاط الملوك بل كانوا من مستشاريهم وكانت التقاليد الرسمية في مالي تحفظ لهم هيبتهم بين الناس. وتمتع فقهاء وعلماء المغاربة[2] بحب أهل السودان الغربي لدورهم في تعليمهم اللغة العربية و القرآن الكريم.[3] ولذلك شهدت دولة مالي دخول علماء من جميع أنحاء المغرب إلى مدنها . وكان سلاطين مالي على دراية بقيمتهم الدينية والعلمية فاستقدموا علماء المالكية، وتفقهوا على أيديهم، وأخذوا عنهم المذهب المالكي.[4]

أ. العلماء والفقهاء المغاربة في رحلة ابن بطوطة لمالي :

مما يشير إلى التواجد الكبير للعلماء والفقهاء المغاربة في مملكة مالي هو ما ورد في رحلة ابن بطوطة من أسماء لهؤلاء . فمنهم من قابلهم ومنهم من استضافه في بيته ومنهم من شاهده في بلاط الملك، وتبين من خلال رحلته أنهم كانوا يتمتعون بمكانة عالية في المجتمع السوداني .

---

[1] ربما قد يظن بأن في عدد العلماء مبالغة , ولكن الأمر على خلاف ذلك , لأن حتى قد كانت قرى متعددة متقاربة متصلة تزيد على السبعة آلاف قرية , بالإضافة إن القصد من العلماء قد يكون من قراء القرآن أو حفاظه وهم كثر في المنطقة

[2] ذكر بعضهم ابن بطوطة في رحلته لمملكة مالي .

[3] عبلة محمد سلطان : المرجع السابق .188

[4] القلقشندي : المصدر السابق . ج5 . 285

فأثناء تواجده بمدينة كوكو استضافه رجل يدعى محمد بن عمر وصفه بالفطنة والظرف والمرح وهو من أهل مكناسة.[1] كما أكرمه الفقيه محمد الفيلالي الذي كان يشغل منصب إمام مسجد البيضان وأصله مغربي .[2] وممن التقى بهم محمد الجدي التازي وأبو حفص المسوفي والشيخ التلمساني والشيخ المزوري المراكشي, وفي مدينة تكدا استضافته مجموعة من الفقهاء المغاربة بالمدينة منهم الشيخ سعيد بن علي الجزولي، والقاضي أبو ابراهيم الجاناتي وجعفر بن محمد المسوفي[3] ,ووضح ابن بطوطة في رحلته أن هؤلاء الفقهاء والعلماء المغاربة كانت لهم مكانة خاصة عند سلاطين مالي، حيث يذكر أنه لما وقعت منازعة بين سلطان تكدا وهو بربري يسمى إزار وأحد سلاطين المنطقة واسمه التكريري وهو بربري أيضا تدخل القاضي أبو إبراهيم والخطيب محمد والمدرس أبو حفص والشيخ سعيد بن علي للإصلاح بينهما .[4]

كما يذكر ابن بطوطة[5] أنه لما وصل الى عاصمة مملكة مالي أستقبله زعيم جماعة البيضان أي المغاربة وهو محمد بن الفقيه الجزولي وصهره الفقيه المقرئ عبد الواحد وهو زوج بنت عم السلطان، والفقيه شمس الدين النقوشي المصري .

بالإضافة إلى ما جاء في كتاب ابن بطوطة من أسماء للعلماء والفقهاء المغاربة وردت في مصادر أخرى أسماء مغاربة عاشوا ببلاد السودان .فقد أورد الغبريني[6] في كتابه عنوان الدراية اسم الشيخ الموصلي وهو من علماء بجانة، وذكر كل من العمري

---

[1]. ابن بطوطة :المصدر السابق. ص698

[2]. نفسه. ص695

[3] ابن بطوطة :المصدر السابق. 696، الحادي ميروك الدالي مملكة مالي الإسلامية وعلاقتها مع المغرب وليبيا (من القرن 13 حتى القرن 15م) ط1دار الملتقى للطباعة والنشر –بيروتلبنان1993م. ص139، عبلة محمد سلطان : المرجع السابق ص137

[4]. ابن بطوطة :المصدر السابق. ص698،

[5] . نفسه. ص681، ابراهيم علي طرخان : دولة مالي الإسلامية،الهيئة المصرية العامة للكتاب 3, القاهرة, ص152

[6] العباس أحمد الغبريني : عنوان الدراية في من عرف في المائة السابعة ببجاية –تحقيق رابح بونار – الشركة الوطنية للنشر والتوزيع – الجزائر 1328هـ. ص166، 167

والقلقشندي[1] الشيخ الدكالي وهو فقيه مغربي إسمه الكامل أبو عثمان سعيد الدكالي عاش بمدينة "يني" بمالي مدة خمسة وثلاثين سنة وهو من زود العمري عند وجوده بمصر بالمعلومات عن بلاد السودان وأحوال سكانها في كتابه مسالك الأبصار.

وفي أواخر عهد مملكة مالي ذكر السعدي[2] أن من أشهر العلماء المغاربة الذين كانوا يسكنون مدينة تنبكت هو الفقيه والحاج وهو من قبيلة جدالة وجد القاضي عبد الرحمن بن أبي بكر وكان قاضيا بالمدينة ويقول عنه كذلك : " أول من أمر الناس بقراءة نصف حزب القرآن في جامع سنكرى بعد صلاة العيد وبعد صلاة العشاء ".

ب . العالم والمهندس المشهور أبو إسحاق الساحلي الأندلسي في مالي:

لما اشتدت وطأة المسيحية بزعامة قشتالة على مسلمي الأندلس وركزت جهودها لشن حرب صليبية لانتزاع بقية المناطق الإسلامية، والقضاء على الوجود الإسلامي هناك، هاجر عدد كبير من مسلمي الأندلس إلى بلاد المغرب والسودان فرارا بدينهم وقد لقي من وفد منهم إلى بلاد السودان كل ترحيب من السلطان منسا موسى[3] أو ممن جاء من بعده من السلاطين ,ولذلك نعدهم من المغاربة أكثر من انتمائهم للأندلس لفقدانهم هذا الوطن[4].

من أشهر علماء الأندلس الذين سكنوا بلاد السودان واثروا في حياتها الثقافية والاجتماعية هو الشاعر المشهور والمهندس المعماري أبو إسحاق الساحلي المعروف

---

[1] ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار . تحقيق محمد عبدالقادر خريسات وآخرون . مركز زايد للتراث والتاريخ . العين . الإمارات العربية المتحدة ج4 . ص60، القلقشندي : صبح الأعشى . صبح5 . ص 276، 287

[2] . السعدي : المصدر السابق . ص27

[3] منسا موسى : 712هـ 737هـ/ 1312م – 1337م ممن أبرز وأعظم السلاطين في دولة مالي وبلغت المملكة في عهده أقصى اتساع لها ,ودرجة كبيرة من القوة والنفوذ , كرس جهوده لتحقيق العدل ونشر الأمن , وأهتم بالمنشآت الدينية والمدنية الكبرى وبنى مسجدا في كل موضع أكبرها مسجد العاصمة غاو أو جاو أشهر برحلته إلى الحج واهتمامه بالعلم والعلماء .(محمد عبد العال أحمد : منسا موسى سلطان التكرور , جامعة القاهرة ,1987م,ص 5 , 53)

[4] ابراهيم علي طرخان : دولة مالي الإسلامية ,ص82

باسم التونجين . قال عنه المقري[1] :"أن أباه كان عالما في الفقه " أي أنه كان من أسرة علمية، وأرتحل إلى المشرق لأداء فريضة الحج ثم سار بعد ذلك إلى بلاد السودان بصحبة السلطان العظيم منسا موسى، فأستوطنها وتوفي بها في اليوم السابع والعشرين من جمادي الأخير عام 747هـ /1346م ودفن في تنبكت.

وجاء في كتاب الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني[2] أن هذا العالم كان رحالة قدم القاهرة ودخل الشام والعراق واليمن وعاد إلى مصر ثم دخل بلاد السودان وكان فاضلا في عدة فنون حسن الخط كريم النفس .

ويفيد ابن خلدون[3] بأن هذا العالم بنى قصرا للسلطان منسا موسى محكم البناء أستفرغ فيه إجادته، فجاء من أتقن المباني ووقع من السلطان موقع الاستغراب وكافأه السلطان على ذلك بإثني عشر ألفا من مثاقيل التبر بالإضافة الى ما كان من الأثر عند هذا السلطان .

والساحلي أشهر شخصية كان لها أثرها في تطوير الفن المعماري في مملكة مالي، فهو الذي أشرف على عمارة مساجد جاو وتنبكت، وأدخل فن البناء بالطوب المحروق وبنى قاعة الاجتماعات بقصر منسا موسى في مالي من الحجر والجبس وزخرفها بالخشب المطعم بالذهب والفضة، كما أدخل نظام السقوف المسطحة للمنازل والمآذن الهرمية الشكل[4] . فقد كانت المباني قبل ذلك من الخشب ولا تزال آثار مسجد جاو باقية إلى اليوم [5].

---

[1]. المقري : نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب . تحقيق إحسان عباس . دار صادر . بيروت . 1386هـ / 1968 م . ج2 . ص 194

[2]. ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة . حيدر آباد . 1350هـ . ج2 . ص302

[3]. ابن خلدون : المصدر السابق . ج6 . ص268

[4]. ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة (المعروف بـ: تحفة النظار في غرائب الأمصار) دار بيروت للطباعة والنشر – (د ط) . بيروت –1400هـ/1980م ص694

[5]. ابراهيم علي طرخان المرجع السابق . ص154، 155

3 . الفقهاء والعلماء المغاربة في مملكة سنغاي[1] :

تنقل عدد من الفقهاء والعلماء المغاربة إلى بلاد السودان الغربي في عهد مملكة سنغاي، فجاءوا من فاس ومراكش وتلمسان وتوات وغيرها، وشكلوا جالية مغاربية قوية كان لها أثر على الحياة الثقافية حتى أصبح باستطاعة فقيه مغربي أن يلطخ سمعة حاكم عظيم مثل سني علي . فقد قال عنه كعت التنبكتي[2] في كتابه الفتاش بأنه كان ظالما وفاجرا وملعونا ومتسلطا. أما الإسقيا محمد فقد كسب جانب العلماء لتقربه منهم قال عنه كعت: "وله من المناقب وحسن السياسة والرفق بالرعية والتلطف بالمساكين مالا يحصى..."[3].

ومن أشهر العلماء المغاربة الذين عاشوا ببلاد السودان وكان تأثيره قوي والذين أفادوا السودان الغربي هم :

أ . محمد بن عبد الكريم المغيلي: (790هـ .909 هـ/1533م 1503م

كان له بسطة في الفهم والعلم، دخل بلاد تكدة وأجتمع بسلطانها وأقرأ أهلها وأنتفعوا به ثم دخل بلاد كانو وكاتسينا من بلاد السودان وأجتمع بصاحب كانو وكتب رسالة في أمور السلطة يحضه فيها على اتباع الشرع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقرر له أحكام الشرع وقواعده ثم دخل بلاد التكرور ووصل بلاد كاغو (غاو أو جاو) وأجتمع بسلطانها الإسقيا محمد الكبير وألف له تأليفا أجابه فيها عن مسائل مهمة في

---

[1] مملكة سنغاي : أحد ممالك السودان الغربي , تأسست في القرن الرابع الميلادي وعاصمتها "غاو " أو "جاو" ,أول من أسلم من ملوكها إسحاق " زاكسي " سنة 400هـ/1009م , ضمت إلى مملكة مالي في عهد منسا موسى , وبرزت كدولة قوية في عهد أسرة سني بين 736792هـ/13351493م. تحولت إلى أسرة الإسقيين في عهد محمد الكبيرسنة 899هـ/1528م وسقطت بعد الحملة المغربية بقيادة القائد جودر في عهد أحمد المنصور الذهبي سنة928هـ/1593م (عبد القادر زبادية : مملكة سنغاي في عهد الإسقيين , الجزائر , 1971 , ص95).

[2] محمود كعت التنبكتي : تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس . طبع ونشر هوداس ودولافوس . باريس 1913 . ص69

[3] نفسه . ص59.

الشريعة وأصول الحكم سماه "أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي"[1] مسائل وأشتهر المغيلي بقدراته العلمية الكبيرة وتعصبه لمذهبه وعدائه لغير المسلمين، وأنه كان جانبه المحققين وأحد الأذكياء في التقدم حسب ما جاء وأحد الأذكياء في الفهم والتقدم حسب ما ورد في كتاب نيل الإبتهاج [2]. وكان المغيلي معادي لليهود بعد تحكمهم في مدينة توات وطلب الأسقيا القبض عليهم بعد مقتل أبنائه في توات ,ولكن أحد فقهاء السودان وقف ضده وهو أبو المحاسن محمود بن عمر[3].

ب . فقهاء وعلماء المغرب الأقصى في مملكة سنغاي :

عاشت بمملكة سنغاي عائلات وأسر ذات أصول مغربية، اشتهرت بالعلم، فكان منها القضاة والأئمة والمدرسون والفقهاء مما مكنهم من تبوأ مكانة سياسية ودينية في مجتمعات السودان الغربي خاصة في عهد المالك

أسقيا محمد الكبير ومن أشهرهم :

علماء أسرة أقيت : وهي أسرة ذات أصول صنهاجية، كانت تعيش في مدينة تنبكت، ومن أشهر علمائها أحمد بابا التنبكتي صاحب كتابي نيل الابتهاج وكفاية المحتاج [4],وترجع أسرة آل آقيت الى قبيلة صنهاجة، أشتهر أبناؤها بالتقوى والورع والثقة الشديدة في الدين، أقامت في مدينة " ماسنة " ثم غادروها إلى " ولاتة " ومنها إلى تنبكت لتستقر هناك . فعاش بها أجداد أحمد بابا التنبكتي الذي قام بترجمة كاملة لهم في مؤلفاته[5]. نذكر منهم

---

[1]. ابن مريم : البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان . ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر . 1968 ت ص252، 253

[2]. أحمد بابا التنبكتي : نيل الابتهاج بتطريز الديباج – تحقيق علي عمر – مكتبة الثقافة الدينية ط1 – مصر 2004 . ج2. ص264

[3]. أحمد بابا التنبكتي : نيل الابتهاج، ج2 , ص 265، 266

[4]. الأمين محمد عوض الله : المرجع السابق . ص193

[5]. أحمد بابا التنبكتي : نيل الابتهاج. ج1. ص4، 4، أحمد بابا التنبكتي : كفاية المحتاج. ج1. ص72

محمود بن عمر بن محمد (ولد سنة 868هـ-ت955هـ /1463-1548م): وهو أبو المحاسن عالم التكرور وفقيهها، يهابه السلاطين، أكثر ما قرأ المدونة والرسالة ومختصر خليل والألفية، أخذ عنه العلم أولاده الثلاثة القضاة محمد والعاقب وعمر[1].

أحمد بن عمربن محمد أقيت (942هـ /1535م) : عرف بالحاج أحمد أكبر أخوته الثلاثة المعروفين منهم محمود ومحمد وهو جد أحمد بابا التنبكتي، كان شاعرا وفقيها عارفا اللغة العربية والعروض، له عدة دواوين أخذ عنه العلم الفقيه القاضي محمد بن عمر[2].

أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد آقيت (ولد سنة 923 هـ/ ت991 هـ) : والد أحمد بابا التنبكتي: كان فقيها وعلامة عصره، ألتقى بمجموعة من العلماء أثناء رحلته إلى الحج منهم الناصر اللفتالي والشريف يوسف ,والدميوطي تلميذ الإمام السيوطي والشيخ التاجوري، له مؤلفات منها شرح الفزارية لإبن مهيب في مدحه للرسول صلى الله عليه وسلم، وشرح منظومة المغيلي.[3]

العاقب بن محمود بن عمر (ت991 هـ/م1582): تولى القضاء في تنبكت وأشتهر بمواقفه الصارمة مع السلاطين.[4]

أبو بكر بن أحمد بن عمر بن محمد آقيت (ولد سنة 932هـ - ت 991هـ / 1525- 1582م): من تلاميذه أحمد بابا التنبكتي أشتهر بالزهد، له مؤلفات في التصوف منها كتاب "معين الضعفاء في القناعة"[5].

تعرضت أسرة أحمد بابا التنبكتي لمحن في عهد سني علي، فقد نفي جده السبير(ولاتة)، كما تصدت أسرته للغزو المراكشي على عهد السعديين، فسجن أحمد

---

[1]. أحمد بابا التنبكتي : نيل الابتهاج. ج2. ص303

[2] نفسه ج1. ص 147

[3]. أحمد بابا التنبكتي : نيل الإبتهاج. ج1. ص153

[4]. نفسه. ج1 ص399

[5]. نفسه. ج1. ص165

بابا ونفي إلى مراكش سنة 1001هـ.1005هـ / 1592 م 1596م ثم أطلق سراحه، فبقي في مراكش حتى عام 1015هـ/ 1606م، وسمح له بعد ذلك أن يعود إلى تنبكت. وفي الفترة التي قضاها في مراكش منح عدة إجازات علمية لبعض تلاميذه أشهرهم أحمد المقري التلمساني (ت 1041هـ / 1631م) صاحب كتاب نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب[1].

ومن العائلات المغربية التي عاشت في السودان الغربي وأشتهر أفرادها بالعلم :

عائلة بغيغ: كان منها العالم الفقيه محمد بن محمد بن أبي بكر المعروف ببغيغ (921هـ.1000هـ / 1515م . 1593م)، أخذ العلم من أبيه الصالح محمود وعن خاله الفقيه أحمد بن سعيد، والتقى أثناء رحلته إلى الحج بالناصر اللقتالي والتاجوري بمصر. ولازمه أحمد بابا التنبكتي[2] مدة عشرة سنين ويقول عنه: "فهو شيخي وأستاذي ما أنتفعت بأحد إنتفاعي بهي..."توفي يوم الجمعة من شوال سنة 1002هـ / 1593م،مخلفا عدة مؤلفات في الفقه .

عائلة الخضر: كان من أشهر علمائها كاتب الملك سني علي[3].

عائلة البلبالي: كان منها العالم والفقيه مخلوف بن علي صالح البلبالي (ت 940هـ/ 1533م)[4].

عائلة الفيلالي: وكان منه منصور الفيلالي عمل مستشارا عند الملك الأسقيا محمد[5].

---

[1]. السعدي : تاريخ السودان . ص28، محمود كعت التنبكتي : المصدر السابق . ص 179، أحمد بابا التنبكتي : نيل الإبتهاج . ج2 . ص179.

[2] أحمد بابا التنبكتي : نيل الإبتهاج . ج2 . ص295، أحمد ابراهيم دياب : علماء بلاد السودان في القرنين 1617م وآثارهم العلمية ندوة: العلماء الفارقة ومساهمتهم في الحضارة العربية الإسلامية . الخرطوم 1983/07/28.ص15

[3]. نفسه . ج2 . ص253، السعدي : المصدر السابق . ص50، 68

[4]. أحمد بابا التنبكتي : نيل الإبتهاج . ج2 . ج2 . 304

[5] محمد الغربي : المرجع السابق . ص190

الخاتمـــــــة:

من خلال ما تقدم ذكره نستنتج أن الصلات الثقافية بين السودان الغربي وبلاد المغرب كانت قوية ومتينة في عهد مملكتي مالي وسنغاي. فالنشاط الاقتصادي بين المنطقتين سمح بتنقل آلاف المغاربة من الشمال إلى الجنوب ومن بينهم الفقهاء والعلماء والدعاة، و كان لهؤلاء مكانة مرموقة في المجتمع و أدوار واضح في الحياة السودانية، حيث تمتعوا بنفوذ كبير، فقاموا بالحفاظ على سلامة العقيدة،وتولوا مناصب عليا في القضاء والإدارة، و منهم المستشارين للملوك وكتابهم ,فسجلوا أعمالهم وحملوا مراسلاتهم إلى الدول الأخرى كما كانت الشكاوى التي يتقدمون بها للسلاطين تلقى صدى وردا سريعا .

و لدعاة وفقهاء المغرب دور كبير في إسلام ملوك السودان الغربي فقد أسلم على أيديهم ملك جني وملك التكرور وملك جاو خلال القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، ووصل تأثير الفقهاء المغاربة على الحياة السياسية إلى حد أن الفقيه المغربي يمكن له تلطيخ سمعة حاكم كبير مثل سني علي أو الرفع من قيمته مثل الأسقيا محمد الكبير، مما جعل الحكام يتقربون منهم ويغدقون عليهم بالأموال ويمنحونهم المناصب العليا.

أما من الناحية العلمية والدينية فكان دورهم بارزا في نشر الثقافة العربية الإسلامية بنشر اللغة العربية وتعليم الفقه والحديث وتفسير القرآن ,و تأسيس المدارس الإسلامية والتي كانت سنية في مناهجها مغربية في طرق تدريسها ,كما كان لهم الفضل في إدخال المذاهب الإسلامية منها المذهب الإباضي بين القرنين الثاني والخامس الهجريين/الثامن والحادي عشر الميلاديين على يد بعض الفقهاء كعلي بن يخلف , والمذهب المالكي الذي ساد في السودان الغربي على أيديهم خلال وبعد القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي . فانتشرت بفضل العلماء المغاربة كتب المالكية مثل كتاب موطأ مالك ,وكتب المغيلي والونشريسي , ودرست

هذه الكتب في معظم مدن السودان الغربي مثل جاو وتنبكت وكانو, وتأثر سكان السودان من الناحية المعمارية مما خلفه لهم المهندس والعالم أبو اسحاق الساحلي الأندلسي، فأبرز نموذج إسلامي سوداني في الفن المعماري بعد تكليفه من الملك المالي منسا موسى بالإشراف على بناء مجموعة من المنشآت الدينية والإدارية أشهرها قصر ملك مالي ومسجدي تنبكت وجني .